

التمويه اللساني عند حازم القرطاجني في كتابه منهاج البلغاء وسراج الأدباء

The Linguistique camouflage according to Hazim El Quartadjanni in his book : « Minhaj El Bulagha and Siradj Eludabaa ».

ذبيون حياة ، جامعة سطيف2، الجزائر ، الإيميل hayetdhiboun@yahoo.fr

تاريخ قبول المقال: 04-10-2023

تاريخ إرسال المقال: 14-09-2023

الملخص:

يعد التراث العربي نافذة مفتوحة على القراءة والتأويل، بما تدخره مدوناته من جهود معتبرة يمكن عدّها لبنات أولى لما أبدعه الفكر الإنساني لاحقاً. والمتصفح للتراث العربي، يلمح فيه سمة التعدّد، فمدوناته أشبه ببحر تصبّ فيه مختلف المشارب المعرفيّة. لهذا تغدو قراءة التراث فعلاً لا فائدة منه، ما لم يأخذ الباحث بفكرة تحيينه. ويعتبر كتاب منهاج البلغاء وسراج الأدباء نموذجاً لغويّاً، بما حمّله في تضاعيفه من ملامح تفكير لساني ما يزال بحاجة إلى بحث واستقصاء من لدن المشتغلين في حقل اللسانيات.

الكلمات المفتاحية: التراث، التّحيين ، الحجاج، الإقناع.

Abstract: Arab Legacy is an open window to reading and interpretation, important efforts are saved in his blogs which can be considered as the first building block of what human thought created later.

The browser of arab Legacy alludes to it features of pluralism, his blogs are like a sea in which different cognitive stripes are poured, there fore reading legacy becomes truly useless if the researcher does not take up the idea to update it.

The book « Minhaj El Bulagha and Siradj Eludabaa », is considered as a linguistic model carries in his pleatings features of linguistic thinking that still needs research and investigation by those working in the field of linguistics

Key words : Legacy, up date, arguments, persuasion

مقدمة:

الإنسان كائن اجتماعي بطبعه، يقيم جسور التواصل بينه وبين الآخرين، ليحقق للذات توازنها النفسي، والفكري، والاجتماعي... فالذات لا تتوجد إلا بوجود ذوات أخرى، تُبادلهم المصالح، وتُشاركهم صناعة أحداث التاريخ، وتُقاسمهم مجاهيل المستقبل.

ومن بين ما يجمع الذوات جميعاً؛ عامل اللغة، فاللغة قاسم مشترك لجميع أفراد المجتمع الواحد، يعبر بها الفرد عن أغراضه، ويتواصل بها مع أقرانه قصد الإبانة والإفهام، وهو ما نعبر عنه بالتواصل الإيجابي، لأنّ الذات في خطابها التواصلية، لا تلغي مصلحة الآخر.

لكن اللغة ممارسة أخرى، فهي تُوضّح وتُغزّ، تُبين وتُضمر، تُجلي وتُخفي... بل إنّ المتلفّظ بها يلجأ إلى استغلال الإمكانيات التعبيرية للغة لخدمة مصالحه الشخصية، فيلجأ في كثير من الأحيان إلى استغلال الجانب الآخر من اللغة؛ المتمثل في صناعة خطابات تمويهية قصد السيطرة على الآخر وإخضاعه. ولا تكون اللغة في هذه الحالة إلا محاكية لطبيعة هذا الإنسان المسكونة بقيم الخير تارة، وقيم الشرّ تارة أخرى.

وإذا كانت البحوث السابقة قد عرضت لأسلوب التمويه - المصاحب للقول الشعري - في معرض الحديث عن نظرية التخيل، فإنّ جديد هذا البحث يكمن في أنّه يربط التمويه بإشكالية أكبر هي علاقة الإنسان بالوجود، والحقيقة، والطبيعة. فالتمويه الشعري لم يكن لينوجد، ولم يكن ليستسيغه المتلقي إذا لم يكن يتوافق والنفس البشرية المسكونة بالتناقضات الوجودية والمعرفية، والقيمية... فالتمويه ليس أسلوباً فنياً فقط، بل أسلوب حياة. فالحقيقة حقائق، ولا وجود لحقيقة قارة، لهذا يكون التمويه أسلوب حياة، لأن الحقيقة قد لا تتفصل عن أضدادها؛ اللاحقيقة والوهم. من هنا يطرح البحث الإشكالات الآتية: هل يتموقع الإنسان في بيت الحقيقة فقط، أم تتجاذبه ثنائيتا الحقيقة والوهم؟ وهل يمكن للوهم أن يكون حقيقة؟ ما موقف حازم القرطاجني* من التمويهات؟ وهل يمكن منح تراثنا النقدي أبعاداً لسانية تجعله معينا لا ينضب وكنزا لا يفنى مع التقدم؟

* هو أبو الحسن حازم، ولد بقرطاجنة سنة 1211/608م. اشتهر بنسبته إلى مسقط رأسه حتى عرف بالقرطاجني، قضى طفولته وشبابه في عيش رغد، متقدلاً بين قرطاجنة ومرسية، كان مقبلاً على التعلّم جاداً في الدرس. تعلّم الفقه والعلوم الحديثية، والعلوم الشرعية واللغوية. كان فقيهاً مالكي المذهب كوالده، نحوياً بصرياً كعمّة علماء الأندلس، حافظاً للحديث، راوية للأخبار والأدب شاعراً. قصد غرناطة وإشبيلية فجمع من الأسانيد والإجازات. اتّصل بشيخه الجليل، عمدة الحديث والعربية؛ أبو علي الشلوبين، فلاحظ استعداده للأخذ بالعلوم العقلية، فحمّله على الأخذ بالعلوم الحكمية الهلينية، ووجّهه إلى دراسة المنطق والخطابة والشعر.

ولمناقشة هذه الإشكاليات، يستأنس البحث بالمنهج الوصفي، وكذا بإجراء التحليل.

المبحث الأول: في ماهية التمويه وجذوره الفلسفية:

يتناول هذا المبحث تعريف التمويه لغة واصطلاحاً، وآراء القدامى في هذا المصطلح وتشكلاته في المحضن الفلسفي. وكون التمويه من أساليب التصرف اللغوي، فقد ارتبط بقدرة المتلقّظ على إنشاء صناعة قولية مُخادعة، توهم بالصدق لتمزّر من خلاله إيديولوجيات ومعتقدات المتلقّظ، الذي يُحوّل سير خط اللّغة من صدق إلى تضليل وتمويه. فالإنسان الذي لطالما توسّل باللغة ليؤسس من خلالها عالم الجمال، والفضيلة، والخير، نجده ينقض هذا الميثاق بينه وبين اللغة، ويوجهها وجهة مغايرة، تخدم نواياه المبطّنة، وأغراضه الشخصية دون اعتبار لكيونة الدّوات الأخرى التي تشاركه الفضاء المكاني والزمني، وتشاركه الحقوق والواجبات.

وما لجوء الإنسان إلى أسلوب التمويه اللغوي، إلا لتوفر اللغة على خصائص تساعد على ذلك، فهي أداة طيّعة بما تحوزه من مرونة في التعبير.

المطلب الأول: في ماهية التمويه: اللّغة في مجملها اصطلاح، يمكّن الناطق بها من تحقيق التواصل الفعّال باستعمال ما تواضع عليه القوم من اصطلاحات. ونظراً لأهمية المصطلح في بناء المعرفة، فإنّ هذا المطلب سيقدم تعريفات لغويّة وأخرى اصطلاحية لمصطلح التمويه.

أولاً: المفهوم اللغوي: التمويه مصدر موه يمّوه. قال ابن فارس: >> موهت الحديد وغيرها طليتها بذهب أو فضة¹ <<

وجاء في معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: >> تَمَوَّهَ الحقُّ: ألبس بالباطل. تَمَوَّهَ عليه الشّيء: خفيت عليه حقيقته "تموّهت الأخبار على الناس" موه الكأس: طلاه بفضة أو ذهب وليس جوهره منهما. موه الحق: لبّسه بالباطل، أفسده بظواهر خادعة. موه عليه الخبر: زوّره وزخرفه، أخبره بخلاف الحقيقة² << يتبيّن ممّا سبق أنّ التمويه يفيد الخداع، والتضليل، وإظهار الشّيء بخلاف ما هو عليه.

ثانياً: المفهوم الاصطلاحي: نظراً لأهمية المصطلح في بناء صرح المعرفة الإنسانية، فقد كان وما يزال محلّ عناية المشتغلين بعلم المصطلحية، وهو ما يعكس وعياً بالمصطلح للعلاقة المتلازمة بين العلم ومصطلحاته، ف >> بين العلم والمصطلح لحاماً هو كالتماهي الذي يقوم بين الدال والمدلول في المسلمات

¹ - أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين: مجمل اللغة، ج 1، تح: زهير بن المحسن سلطان، ط2، مؤسسة الرسالة بيروت، 1406هـ - 1986م، ص 820.

² - أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، مج 3، ط1، عالم الكتب، القاهرة، 1429هـ - 2008م، ص 2141.

اللغوية الأولى، فكل حديث عن الدال منفصلا عن مدلوله وكل حديث عن المدلول في معزل عما يدلنا عليه، بل كل حديث عن علاقة الدوال بمدلولاتها إنما ينطوي على فصل بين المتلاحقات¹ << إن المصطلح بمنزلة العمود الفقري للعلوم، فلا تقوم قائمة لعلم ما، ما لم يؤسس لمصطلحاته التي يتواصل بها أهله، فعُدّت المصطلحات بحق لبنات العلوم وشرطها الأول. وفي ذلك يقول المسدي: >> مفاتيح العلوم مصطلحاتها ومصطلحات العلوم ثمارها القصوى فهي مجمع حقائقها المعرفية وعنوان ما به يتميز كل واحد منها عما سواه. وليس من مسلك يتوسل به الإنسان إلى منطق العلم غير ألفاظه الاصطلاحية حتى لكأنها تقوم من كل علم مقام جهاز من الدوال ليست مدلولاته إلا محاور العلم ذاته ومضامين قدره من يقين المعارف وتحقيق الأقوال² <<

وتأتي أهمية تعريف التّمويه من ضرورة معرفيّة تفرضها مجالات البحث الحديثة والمعاصرة، فإذا كانت البلاغة قد احتفت بهذا المصطلح، لارتباطه الوثيق بالأقوال الشعرية فإنّ مفهوم التّمويه >> بقي متراخيا في الدراسة اللغويّة على أساس أنّه أمر ثانويّ، لم يستقر له على مصطلح علمي حتى اليوم³ << فعلى المباحث اللسانية أن تعنى بأسلوب التّمويه، وتدرجه في صميم الدراسة اللغويّة، لأنّ اللّغة ليست منظومة منطقيّة، بل فكريّة وإيديولوجيّة منظومة، تعكس ميول ورغبات مستعملها.

يعرّف التّمويه فلسفيّا على أنّه >> تمثّل حسيّ كاذب، ناشئ عن كيفية تأويل الإدراك لا عن معطيات الإحساس، كمن ينظر إلى الخشبة الطّافية فوق الماء فيحسبها غريقا، أو إلى الحشرة الصّغيرة الطّائرة بالقرب من عينيه فيحسبها طيرا كبيرا⁴ <<

فالتّمويه نوع من الخداع، تمارسه الحواسّ على الإنسان في أولى تجلّياته، كما يتمظهر في مجالات عديدة؛ في العلاقات الاجتماعيّة واللغويّة، والسياسيّة... للإنسان

المطلب الثاني: التّمويه في الفكر الفلسفي: يناقش هذا المطلب سلطة الخطاب التي يستمدّها من الإمكانيات التعبيرية التي تنماز بها اللّغة؛ كالتّمويه والمغالطة، وإيقاع المخاطب في الخطأ، وعلاقة ذلك بالفكر السفسطائي.

¹ - المسدي عبد السلام: المصطلح النقدي، د ط، مؤسسات عبد الكريم للنشر، تونس، 1994، ص 11.

² - المسدي عبد السلام: قاموس اللسانيات عربي - فرنسي، فرنسي - عربي مقدمة في علم المصطلح، د ط، الدار العربية للكتاب تونس، 1984 ص 11.

³ - سعد صبار عبد الباقي محمد: التّمويه اللّغوي في التّواصل الإنساني. دراسة لسانيّة، مجلة مداد الآداب، ع 20، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الفلوجة، (د ت)، ص 109.

⁴ - صليبا جميل: المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية، ج2، (د ط)، دار الكتاب اللبناني، بيروت/ لبنان 1982م، ص 583.

أولاً: سلطة اللغة: يمتلك الإنسان قوى متعددة، مادية ومعنوية، يستخدمها لجلب منفعة أو درء مضرة، منها؛ قوى عقلية، وجسدية، وروحية، ولغوية. والإنسان بحاجة إليها جميعاً ليواصل مسيرته الحياتية. لهذا وجب عليه أن يطور من تلك القدرات، ويجعلها تسير التطورات الحضارية والفكرية والثقافية.

إلا أن تلك القوى لا محالة يصيبها الضعف والوهن، سيما المادية منها، حينها يكون الإنسان بحاجة إلى قوة تعوّض الآيلة إلى الزوال. لهذا رأى بعضهم أن القدرة اللغوية أعظم القدرات وأبقاها، ف >> إذا كان من المخلج ألا يتمكن الإنسان من الدفاع عن نفسه بالقوة العضلية، فإنه من العبث ألا يتمكن الإنسان من الدفاع عن نفسه بالكلمة، إذ بها، لا بالقوة العضلية، يتميز الإنسان. وإذا أمكن القول إن من يستعمل بشكل غير عادل الكلمة يمكن أن يحدث أكبر الأضرار، يمكن الجواب، باستثناء الفضيلة، إن ذلك مشترك بين كلّ الخيرات وبالخصوص الخيرات الأكثر نفعا مثل القوة والصحة والثروة والذكاء الاستراتيجي، إذ بهذه الخيرات يمكن أن نجني فوائد جمّة، إذا استعملت بشكل عادل، ويمكن أن تكون بالغة الضرر إذا استعملت بشكل يتنافى والعدل¹ <<

إن الالتفات إلى قوة الكلمة في نصّ أرسطو، يدلّ على وعي الفلسفة اليونانية المبكر بأهمية اللغة، وقيمتها في إحلال العدل إذا استعملت بشكل عادل، والمقصود بالعدل أن تعبّر اللغة عن الحقيقة، أما من يستعملها بشكل غير عادل- بأن يعرض الطرف لصنوف الممارسات الكلامية المجانبية للصواب والحقيقة- فإنّ الكلمة حينها تحدث أكبر الأضرار.

إن الحديث عن السلطة ليس حديثاً سياسياً فقط، فقد تكون >> السلطة حاضرة في أكثر الآليات التي تتحكّم في التبادل الاجتماعي² << وهي اللغة، لأنّ مستعملها ينفخ فيها من نواياه ورغباته، ويحوّلها من أداة بريئة، إلى أداة سلطة وقهر، فتصير >> اللغة سلطة تشريعية اللسان قانونها، إنّنا لا نلاحظ السلطة التي ينطوي عليها اللسان، لأنّنا ننسى أنّ كلّ لسان تصنيف، وأنّ كلّ تصنيف ينطوي على نوع من القهر: ORDO³ << وقد تتسع دائرة هذا القهر كما قد تضيق، ويرجع ذلك إلى مستعمل اللغة في حدّ ذاته، الذي تتوقّف عليه استغلال الطاقات التعبيرية للغة.

¹ - Aristote. Rhétorique. Ed Livre de poche. 1991. P80 نقلا عن محمد الولي : في خطابة أرسطو الباتوسية، مجلة علامات المغرب، ع26، 2006، ص 44.

² - رولان بارت: السلطة واللغة، تر: عبد السلام بنعبد العالي، تاريخ النشر 2016/11/28، العنوان الإلكتروني: hekma.org تاريخ التصفح: 2023/08/09.

³ - رولان بارت: السلطة واللغة، تر: عبد السلام بنعبد العالي، تاريخ النشر 2016/11/28، العنوان الإلكتروني: hekma.org تاريخ التصفح: 2023/08/09.

ثانيا: التموه عند السفسطائيين: السفسطائية تيار فلسفي يوناني و>> حركة فلسفية وظاهرة اجتماعية برزت في القرن الخامس قبل الميلاد. وقد تميز روادها بالكفاءة اللغوية البلاغية وبالخبرة الجدلية، ويتجلى ذلك من خلال تسميتهم التي كانت تعني الحكيم الخبير بكل فن وأسلوب¹ <<

تميز السفسطائيون بالفراة اللغوية، فلم يقدر أهل زمانهم على مجاراتهم في هذا الفن القولي، فكانوا فرسان اللغة بامتياز، وجعلوا من هذه الأداة مركز الكون، بها تتحقق المدنية المرغوبة، وبها تعطي الذات مراتب عليا في سلم الترتيب الاجتماعي.

وقد سخرّوا قدراتهم التعبيرية للحجاج والإقناع، وإثبات قضية أو دحضها >> ولقد عمد السفسطائيون في ممارساتهم للحجاج إلى بناء حججهم على فكرة النفعيّة المتعلّقة باللذة أي الهوى، وليس النفع المتعلّق بالمثل أو الخير. وقد أفضت بهم هذه الفكرة إلى توجيه الحجاج بحسب مقتضى المقام الذي يدور فيه الحوار، وذلك اعتمادا على توظيف سلطة القول FORCE DU LANGAGE في الاحتيال على الحقيقة والخير إذا كانا لا يخدمان غرض المُحاجِج² <<

لهذا صار الحجاج عند السفسطائيين مطية إلى الخداع والتمويه والتضليل. فحدث تضارب في القيم في المجتمع اليوناني، وتحطم سلم القيم عندهم. فالحق والخير والفضيلة والجمال...كلّها قيم لا تثبت على حال من الأحوال، وليست محلّ اتفاق. لقد أضحت قيما متعلّقة بالفرد الواحد، وليس بالجماعة ككلّ، ويكفي أن يثبت الفرد ذلك على مستوى القول.

فصارت المخاطبة السفسطائية تتخذ من الأقاويل وسيلة لتحقيق أهداف فردية- وهي أقاويل من شأنها أن تحمل على الخطأ والمغالطة واللّبس، والتمويه- لما وجدته في اللغة من قدرة على المغالطة. وقد سخرّ السفسطائيون جهودهم لتعليم الناشئة مختلف الطرائق التي بها تتحقّق المغالطة والتمويه والقدرة على التلبّيس بالقول.

ولم يكن السفسطائيون لينشروا الفكر السفسطائيّ إلا بعد استتباب الحكم، وانتشار الحرية فالحريّة توفرّ للفرد حريّة الرّأي، وتعدّده، لهذا لا بدّ من سلطة بديلة للسلطة السياسيّة، تحكم الشعب وتخضعه، وتشتغل بالموازاة مع السلطة السياسيّة، فكانت سلطة اللّغة.

وقد وجد السفسطائيون في الخطابة ملاذا لم يجده في غيرها من صنوف القول >> فالخطابة في نظر السفسطائيين هي صدر الصّنائع الإنسانيّة وهي الصّناعة للإقناع، وهي التي تحرّك الأفعال في

¹ - محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر، ط1، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2008، ص 24.

² - المرجع نفسه، ص 27.

المتلقي، وبالتالي فالسفسطائية حركة حجاجية بالدرجة الأولى، ولكنه حجاج عدل عن معنى الجدل بالحجج من أجل الانتصار إلى جدل قائم على التّمويه والمغالطة والقياس الخاطئ، من أجل التّضليل والتّغليب وتحقيق السّطة على المجتمع، والغلبة على الخصوم والتّأثير في مشاعرهم وعواطفهم، وتشكيل الرّأي العامّ دون اعتبار للحقّ أو الباطل¹ <<

لقد كان التّمويه ممارسة فلسفية، نشأ في جوّ الحرية، وتطوّر بفضل حركة السّفسطة اليونانية، كما وضع له السّفسطيون استراتيجيات وآليات يقوم عليها، وهذا يدلّ على أنّ التّمويه ممارسة لغوية قديمة، كانت ولا تزال لدى الكثيرين أسلوباً في الحياة.

المبحث الثاني: التّمويهات الخطابية عند حازم القرطاجني: يناقش هذا المبحث مأزق الحقيقة عند المخاطب في خطاباته التّواصلية التي يتوجه بها إلى المُخاطب بما هي - أي الحقيقة - جماع تمويهات واستدراجات يلجأ إليها المخاطب في كثير من الأحيان قصد إلباس الوهم لبوس الحقيقة. كما يناقش المبحث موقف القرطاجني من التّمويهات الخطابية.

المطلب الأول: التّمويه والخطابات التّواصلية

ينتمي الفرد إلى الجماعة اللغوية المسؤولة عن مجموع الضوابط التي تنظّم المجتمع برمته. وبعدّ الضّابط اللّغويّ من أبرز القواسم التي يشترك فيها أفراد الجماعة الواحدة. فاللغة وسيلة التواصل، يعبر الفرد من خلالها عن أفكاره، وميولاته، ورغباته، ومشاعره... في شكل رسائل لغوية تنتقل من المرسل إلى المرسل إليه، حاملة شحنات فكرية، وعاطفية تؤثر في المتلقي، وتستميله.

أولاً: التّمويه اللساني في الفعل التّواصل: اللّغة ملكة إنسانية، لا يتحقق للإنسان وجوده الفعليّ إلا بها، فهي من أكثر الوسائل فعالية في تحقيق التّواصل بين أفراد الجماعة الواحدة. ونظراً لأهمية اللغة وارتباطها بالجوانب الفكرية والنفسية، والفنية... لحياة الإنسان، نجد المفكرين - قديماً وحديثاً - عنوا بوضع حدودها، وبحثوا ماهيتها، وأصلها... فكان ما قدّمه القدامى في هذا الشأن جديراً بالالتفات إليه، والالتفاف حوله.

يعود لابن جنّي^{**} فضل السّبق في كشف حقيقة هذه الملكة في قوله: << أما حدّها فإنّها أصوات يعبر بها كلّ قوم عن أغراضهم² >> فاعتبار اللغة أصواتاً يدلّ على المستوى التلفظي للغة، وأنّ اللغة هي

¹ - أمقران شعبان، رواينة حفيظة: تقنيات الحجاج في البلاغة اليونانية القديمة. مقارنة لمشروع: السفسطائيين وأفلاطون وأرسطو مجلة اللسانيات مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية، الجزائر، مج 25، ع 2، 2019، ص 35.

^{**} هو عثمان بن جني، ولا يعرف من نسبه من وراء هذا، وذلك أنّه غير عربيّ، وكان أبوه (جني) روميّاً يونانيّاً. نشأ بالموصل وتلقى مبادئ التّعليم فيها.

² - أبو الفتح عثمان بن جني: الخصائص، ج1، تح: محمد علي النجار، ط2، دار الكتب المصرية، 1952م، ص 33.

ما ينتلظ به المتكلم للسامع، كما يفصح نص ابن جني على الجانب الاجتماعي للغة، فهي بمثابة قاسم مشترك للجماعة البشرية الواحدة، لا يستغني عنها المتقدم ولا المتأخر من أفراد المجتمع الواحد. أمّا الغاية من كلّ تواصل لغويّ، فهو تحقيق منفعة، أو درء مضرّة. وهذا ما لم يغفله نص ابن جني حين جعل اللغة تعبيراً عن أغراض المتكلمين. وتأخذ كلمة الغرض صيغة الجمع في نص ابن جني لتتنوعها وتشعبها، واختلافها باختلاف الأزمنة والأمكنة. والملاحظ أن تعريف ابن جني للغة تعريف دقيق وشامل؛ موجز في ألفاظه، عميق في معانيه، جمع فيه الأنظمة الأربعة للغة؛ النظام الصوتي، والاجتماعي، والفكري، والنفعي.

تتوالى بعد ذلك الجهود في سبيل دراسة الظاهرة اللغوية، مما ينم عن العلاقة الوثيقة بين اللغة والفعل التواصلية، ف >> اللغة بوصفها الركيزة الأساس في بنية المجتمع الثقافية توظف في كثير من خدمات المجتمع المهمة، ولهذا تكون لها علاقات في هذا الشأن بكثير من مستويات التواصل. وفي الوقت نفسه تحمل عبارات اللغة في تلك السياقات مضامين تؤدّيها في كلّ مناسبة بشكل مختلف في كلّ سياق بمساعدة بعض العوامل المصاحبة أو الكامنة في إرثها، مما يدلّ على غنى اللغة وغموضها الشديد¹ << كما يدلّ من جهة أخرى على الإمكانات الهائلة التي تختزنها اللغة، فتستحيل معها اللغة قوّة جبّارة وقاهرة، تضاهي، بل تفوق جميع أنواع القوى الماديّة المتاحة للإنسان. فاللغة سلاح ذو حدين؛ ينشئ عبرها المتكلم خطابات تواصلية ذو حدين. >> اكتشف الإنسان مدى جدوى استخدام بعض العبارات في تجارب معيّنة يمرّ بها، ازداد تمسّكه بتلك القوّة وحرصه على توظيفها في تجارب جديدة تزيد من حذقه في ذلك الاستغلال وتقننه في اللعب بمفرداتها وبظلال المعاني المختلفة بين مترادفات² << وهنا زادت رغبة الإنسان في بلوغ أقصى إمكانات اللغة، وزاد وعيه بالأدوار التي قد تؤدّيها اللغة في مختلف السياقات والأحوال الحياتية. فلا مناصّ إذن من استغلال هذه الطّاقة الحيويّة لخدمة نوايا وأغراض ملئويّة، وغير واضحة، يحضر فيها التّمويه، والالتباس والتّجبّ، ويغيب فيها الوضوح، والكشف. إذ >> لا جدال في أنّ اللغة ذاتها لا توصف بالصدق، وإنّما هي تفيد الصّواب والخطأ على حدّ سواء، وهي تحتل الحقيقة والبطلان معا على قدم المساواة³ << فلا غرو إذن أن اللغة يمكن توظيفها لأهداف مختلفة ومتباينة.

¹ - العجمي فالح شبيب: اللغة والسّحر، ط1، 1424هـ-2003م، ص 97، 98.

² - المرجع نفسه، ص 19.

³ - بول موي: المنطق وفلسفة العلوم، تر: فؤاد زكريا، د ط، مؤسسة هندواي، المملكة المتحدة، 2023، ص 28.

ثانياً: التّمويه اللّساني في منهاج البلغاء وسراج الأدباء: تعدّ المباحث اللسانية الحديثة فتحاً جديداً، وثورة جدّدت الدّراسات اللغويّة التقليديّة، بما حملته من إنجازات لغويّة غيّرت ملامح الدّرس اللغويّ التقليديّ.

إلا أنّ هذا التطوّر لم يكن ليستقيم على النحو الذي هو عليه اليوم، لولا الجهود السابقة فالبدائيات ضرورية جداً لإحداث النقلة النوعية في أيّ مجال معرفيّ. وتحيين التّراث يحدث تواصلاً إيجابياً بين سابق المعرفة ولاحقها. والمعرفة الإنسانية بمثابة عقد لا يمكن الاستغناء عن حلقة من حلقاته.

ويعتبر القرطاجنيّ في كتابه منهاج البلغاء وسراج الأدباء واضع مجموعة من المفاهيم التي تعدّ اليوم بنات علم اللسانيّات. وهو ما نلمسه في جملة من نصوص كتابه منهاج البلغاء وسراج الأدباء. منها قوله: >> لمّا كان كل كلام يحتمل الصدق والكذب إمّا أن يرد على جهة الإخبار والاقتصاص وإمّا أن يرد على جهة الاحتجاج والاستدلال. وكان اعتماد الصناعة الخطابيّة في أقاويلها على تقوية الظنّ لا على إيقاع/ اليقين - اللهمّ إلّا أن يعدل الخطيب بأقويله عن الإقناع إلى التّصديق، فإنّ للخطيب أن يلمّ بذلك في الحال بين الأحوال من كلامه- واعتماد الصناعة الشعريّة على تخيل الأشياء التي يعبر عنها بالأقويل وبإقامة صورها في الذهن بحسن المحاكاة¹ <<

هذا النص له من الحمولة اللسانية الكثير، فالقرطاجني يبين فيه متعدّد المشارب المعرفية، من بلاغة جسديتها أضرب الكلام، ثمّ علم بكلام العرب؛ شعرها ونثرها. والأمر الملفت للانتباه تأثّره بطرائق التّفكير الفلسفيّ، الذي تمثّل في نظام الثنائيات. إذ جمع القرطاجني بين ثنائيتين، شكل طرفها الأول؛ الصّناعة الخطابيّة، وطرفها الثّاني الصّناعة الشعريّة، والقصد من هذا الجمع إفادة المخاطب، برفع كلّ لبس عنه، فعندما نتحدّث على مميّزات الخطاب الشعريّ فقط، يتبادر إلى ذهن السّامع أسئلة عديدة من قبيل؛ هل هذه الخصائص يمكن أن يتقاسمها القول الشعريّ وغيره من القول النثريّ؟ وهنا قد تتسع أو تضيق حدود كلّ قول، كما قد تتداخل الصّناعات القوليّة، ما لم يتمّ حصر مميّزات كل قول، بالنظر إلى قول آخر مواز له.

وهنا نجد القرطاجنيّ يجنّب قارئه كلّ هذه الالتباسات والتّساؤلات، بأن خصّ الخطاب الشعريّ بخطاب مقابل له.

لقد أدرك القرطاجنيّ أن التّأليف يبلغ غايته المرجوة، إذا تجنّب التقريريّة المباشرة، واعتمد صبر أغوار الظاهرة بطريقة الثنائيات التقابليّة، خاصة وأنّ الثنائيّة بوصفها فكرة فلسفية [تقوم] على مبدأ وجود

¹-أبو الحسن حازم القرطاجنيّ : منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب ابن الخوجة، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت/ لبنان، 1986، ص 62.

رابطة بين الظواهر التي يبدو أنها منفصلة. و>> الثنائية هي القول بزوجية المبادئ المفسرة للكون، كثنائية الأضداد وتعاقبها، أو ثنائية الواحد والمادة...أو ثنائية الواحد وغير المتناهي عند الفيثاغوريين، أو ثنائية عالم المثل وعالم المحسوسات عند أفلاطون إلخ.¹ << والتعبير بواسطة الثنائيات، يتيح التفكير في المُخْتَلَف، باجتماع الظواهر المختلفة والمتباينة، وعرض خصائصها، وبيان العلاقات بينها، وهو ما يحمل الذهن على التأمل والاستنباط، وإبراز الخصائص المفارقة، وحتى المشتركة.

وفضلا على الثنائيات الفلسفية، نجد القرطاجني استحدث طريقة التفكير بنظام الثنائيات في الدرس الأدبي والنقدي، بعدما كان مقصورا على الدرس الفلسفي، لتصبح الثنائيات علامة مميزة لكل العلوم بعد ذلك. إذ من أبرز ملامح التفكير المعاصر، انتظامه في شكل ثنائيات. هكذا أضحي مفهوم >> الثنائيات الضدية عصب المدرسة البنائية في النقد والتحليل البنيوي/ البنائي. وينحدر هذا المفهوم بوصفه مفهوما بنيويا من دراسات ليفي- شتراوس حول الأساطير² <<

إن تلازم الثنائيات التقابلية في منهاج البلغاء وسراج الأدباء، يدلّ دلالة واضحة على روح التفكير المركّب لدى القرطاجني، فالمعرفة مركّبة، وغير منفصلة في جزئيات بعينها، وما تلازم الصناعة الخطابية، والصناعة الشعرية إلا دليل واضح على اقتران الثنائية اقترانا فكريا، لزم عنه اقترانهما لغويا. فالشعر شكّل إلى جانب الخطابة عماد الصناعة القولية عند العرب.

بعد أن أقرّ القرطاجني حقيقة أن جميع المنطوقات - التي ترد على جهة الإخبار والاقتصاص، أو التي ترد على جهة الاحتجاج والاستدلال - تحتل الصدق والكذب، نلفيه يخصّ القول الكاذب بشرح وتفسير عميق، يكشف رؤية القرطاجني وموقفه إزاء التّواصل اللغويّ وفي ذلك يقول: >> وإنما يصير القول الكاذب مقنعا وموهما أنه حق بتمويهات واستدراجات ترجع إلى القول أو المقول له. وتلك التمويهات والاستدراجات قد توجد في كثير من الناس بالطبع والحكمة الحاصلة باعتياد المخاطبات التي يحتاج فيها إلى تقوية الظّنون في شيء ما أنّه على غير ما هو عليه بكثرة سماع المخاطبات في ذلك والتدرب في احتذائها³ <<

¹- صليبا جميل: المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية، ج1، (د ط)، دار الكتاب اللبناني، بيروت/ لبنان 1982م، ص 379، 380.

²- الديوب سمر: الثنائيات الضدية. دراسات في الشعر العربي القديم، (د ط)، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق 2009، ص 5.

³- أبو الحسن حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 63.

التواصل الإنساني - كما يذهب القرطاجني - مطعم بأساليب التمويه، فالمتكلم عادة يكشف في أقواله مجمل ما يدور في ذهنه، وما يختلج في نفسه، ولكنّ المتكلم يلجأ أحيانا إلى مغالطات قولية، بغية تحقيق مقاصد يخفيها عن المخاطب. ويتحقق له ذلك بتمويه المخاطب وتضليله.

وقد تعرّض الفكر الفلسفي والديني منذ البواكير الأولى إلى ظاهرة الكذب، وشغل هذا الموضوع فكر الفلاسفة اليونان، وجميع الديانات، والشرائع. إلا أنّ القرطاجني عرض له من منظور لساني لغوي. ممثلاً في الجانب الاستعمالي للغة، بأن جعل التمويه الحاصل في القول اللغوي مطية إلى تضليل المخاطب، وجعله يعتقد الصدق في الأقاويل الكاذبة، فيبين القول الكاذب مقنعا، وموهما أنّه حق. وأسلوب التمويه يعكس براعة المخاطب في استعمال اللغة في السياقات التخاطبية المختلفة، كما يعكس كفاءة المخاطب في إحداث تواصل مركّب من الصدق والكذب في آن، إلا أن هذا الازدواج لا يحدث هتما للفعل التواصل، إنما استحداث لنوع خاص من التواصل، تفرضه سياقات اجتماعية، ونفسية، وعقلية. ف >>الالتباس ليس نقصا في اللغة الطبيعية، بل هو مزية فيها يكسبها الطوعية الكافية لجعلها تستجيب لأغراض التبليغ التي لا تحصى¹ <<

وهو ذات المعنى المستنبط من نصّ القرطاجني، فقد منح اللغة إمكانات تواصلية معقدة خرجت بها من طور المباشرة، إلى طور التعتيم والتعمية استجابة لأغراض التواصل التي لا تحصى. ولعلّ هذا يحمل البحث على الإقرار بالبعد اللساني في الفكر القرطاجني. حين أعطى اهتماما للخطاب، والمخاطب، وحين كشف عن إمكانات اللغة في جمع ما لا يجمع. وهنا تتجاوز اللغة إكراهات المنطق وقواعده، وتصنع منطقا مغايرا، يستجيب لأغراض التواصل المتشعبة.

وهكذا، فالتمويه ليس عبثا لغويا، أو ترفا فكريا، وإنما طريقة في التبليغ، والتواصل، وتلك التمويهات والاستدراجات قد توجد في كثير من الناس بالسليقة أولا، ثم بالدربة والمران على تلك الأساليب، فاعتياد المخاطبات المغلوطة، والمضللة، يكسب المخاطب حنكة في صياغتها في سياقات الحياة المختلفة. وهو ما يعمق من القدرة التواصلية لدى المخاطب، والتي تعني >> القدرة على الاختيار المناسب للغة والأسلوب في ضوء مواقف الاتصال والأطراف المشاركة فيه² <<

يحيل نص القرطاجني أيضا إلى مشكل الحقيقة، الكامن في اللغة، فكل قول يحمل حقيقة لا غير، لأن اللغة لا يحكمها قانون واحد، إنّما تتمظهر بكيفيات شتى >> هذه الحرية التي منحت للغة هيأتها

¹ - طه عبد الرحمن: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2000م، ص 99.

² - الجمعان سناء عبد الزهرة، الجمعان صفاء عبد الزهرة: الكفايات التواصلية لدى تدريسي كلية التربية من وجهة نظرهم وعلاقتها ببعض المتغيرات، مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية مج 44، ع 4 ب، 2019، ص 243.

لإنجاز أدوار أشهرها الإبانة والإفهام، كما فتحت المجال بذات القدر للتمويه، وهو الوجه الآخر للغة الذي يُلبس على المُخاطبين ويتسلط عليهم¹ <>

وما يحسب للقرطاجني أيضاً، رؤيته الفلسفية المبكرة في اعتبار التمويه أصلاً أصيلاً لدى الإنسان، وأنه يوجد في كثير من الناس بالطبع والحكمة. فالنص فيه إقرار صريح بأن الإنسان مطبوع على إنشاء تمويهات تخالط أقواله، وممارساته الفكرية، وإظهار الشيء على غير ما هو عليه. وإقرار من جهة أخرى أن التمويه من أهم الاستراتيجيات المخادعة التي يلجأ إليها الإنسان في خطابه التواصليّة.

وهذه إحالة ضمنية إلى قضية اللاحقيقة التي تسكن الحقيقة، وإقرار بأن الوهم جزء لا يتجزأ من الحقيقة، وأن الإنسان يسكن بيت الوهم، وأن الحقيقة تملك قيمتها بالنظر إلى أضدادها؛ اللاحقيقة والوهم. والقرطاجني إذ يقر بحقيقة التمويهات والاستدراجات، وأنها طبيعة الإنسان يكون له فضل السبق في الإشارة إلى الجانب الآخر الذي يسكن الحقيقة، وهي تلك الأوهام التي تجعل العالم يعيش <> لغويا حالات الكذب أكثر مما يعيش حالات الصدق، غير أنه يحولها إلى أحكام أو معتقدات أو خيالات أو أشعار أو حكم، أو غير ذلك من الانطباعات والانفعالات والمشاعر والأحكام والأوهام² <>

إذن، التمويه أكبر من كونه مسألة عارضة في أصل الحقيقة، بل إنه يتشكل في الحقيقة ومع الحقيقة، ولا يمكن الفصل بينهما فصلاً تاماً، لأنه يأخذ شرعيته من وهم الحقيقة. لأن الحقيقة أوهام ليس إلا.

المطلب الثاني: التمويه والحجاج: يناقش هذا المطلب أسلوب التمويه بعدّه آلية حجاجية يلجأ إليها المتكلم لإحداث الإقناع في الفعل الكلامي. وقد جمع القرطاجني بين التمويهات والاستدراجات في شكل ثنائية تقابلية، لإدراكه المبكر بفعالية العلامات اللغوية، وكذا غير اللغوية في إحداث الإقناع .

أولاً: آليات الإقناع في فكر حازم: التواجد الإنساني محكوم بقانون جلب المنفعة، ودرء المضرّة، لهذا اضطرّ الإنسان منذ غابر الأزمنة إلى الدّفاع عن رأيه بالوسائل العقلية واللغوية المتاحة له. فكان الحجاج سبيل الإنسان إلى إثبات ذاته، وإثبات تمركزها حول نفسها.

وقد نشأت نظرية الحجاج في رحاب الحضارتين؛ الهندية واليونانية، إذ كانت شعوب الحضارتين مطالبة باسترداد حقوقها، والدّفاع عنها، بإنشاء خطابات حجاجية تحضر فيها الحجّة، فيتقوى بها الخطاب. وكانت مجالس الملوك والقضاة تستقطب تلك السّجالات الكلاميّة وتعنى بها، ممّا زاد من رغبة

¹ - سعد صبار عبد الباقي محمد: التمويه اللّغوي في التّواصل الإنساني. دراسة لسانيّة، ص 111.

² - قريرة توفيق: الصدق الذي يستملح الكذب، مجلة القدس العربي، تاريخ النّشر: 2023/06/06، العنوان الإلكتروني: <https://www.alquds.co.uk>، تاريخ التصفّح: 2023/07/14.

الاقتدار على فنّ الحجاج. وقد قدّم رولان بارت جانبا من تلك السّجالات التي طبعت الحياة في اليونان. يقول: >> قام طاغيتان هما جيلون وهيبرون من صقلية بنفي وترحيل السكان ونزع ملكياتهم من أجل تعمير سراكوزا، وتقسيم الأراضي على المرتزقة، وعندما أسقطا من طرف انتفاضة ديمقراطية تمّ رجوع الأهالي إلى مناطقهم، كانت هناك دعاوى لا حصر لها لأنّ حقوق الملكية كانت معيّنة، هذه الدعاوى كانت ذات نمط جديد؛ فهي تعيّن لجان تحكيم شعبية كبرى، ويجب، من أجل الإقناع، أن يكون الشخص المائل أمامهم فصيحاً¹ << هذا السياق التاريخي كان له بالغ الأثر في ذبوع الخطابات الحجاجية في الحضارة اليونانية، وأضحى الحجاج وسيلة الدّفاع الفعّالة في مجالس القضاء، بل إنّ فنّ الحجاج أضحى له معلّمون أكفّاء حرصوا على تعليم المواطن اليوناني مهارة الحجاج.

عرف الحجاج بعد ذلك تنظيرات مهمّة على أيدي فلاسفة يونان، نظّروا له، وقدّموه في صورة جديدة، تجمع العناصر الأساسية لنجاح أيّ عملية حجاجية، كما تعنى بعناصر العملية الحجاجية، والشّروط التي يستقيم بها كلّ عنصر. فكان ما قدّمه أرسطو في كتابه؛ الرّبطوريقا إضافة جديدة لنظرية الحجاج، وفيه >> يتناول أرسطو الحجاج من زاويتين متقابلتين: ينظر إليه من الزّاوية البلاغية، فيربطه بالجوانب المتعلّقة بالإقناع، ويتناوله من الزّاوية الجدلية فيعتبره عملية تفكير، تتمّ في بنية حوارية، وتتطّلق من مقدّمات، لتصل إلى نتائج ترتبط بها بالضرورة...هاتان النظّرتان المتقابلتان تتكاملان في التّحديد الذي يقدّمه أرسطو لمفهوم الخطاب؛ إذ يبينه انطلاقاً من أنواع الحضور، ومن الرّغبة في الإقناع² << وقد كان للعرب نصيب من ذلك الجدل الفكريّ الذي شمل نظرية الحجاج، فنجد القرطاجني في كتابه؛ منهاج البلغاء وسراج الأدباء، يرصد آليات الإقناع التي بها يتحقّق للخطاب بعده التّواصلي والإقناعي.

الحجاج آلية من آليات التّواصل، يهدف إلى الإقناع، وإثبات حقيقة ما لدى المُخاطَب وجعله يتأثّر، وينفعل بخطاب المُخاطَب. هذا ما أفزّه أرسطو في إرسائه دعائم الحجاج إذ جعله موجّها >> إلى جمهور خاص، في مقامات خاصّة، كما جعله يتعدّى التأثير النظري العقلي إلى التأثير العاطفي، وإلى إثارة المشاعر والانفعالات³ << وهذا يدلّ على أنّ الحجاج فعل إيجابي وحضاريّ، يجعل الذات تتفاعل مع

¹ - رولان بارت: قراءة جديدة للبلاغة القديمة، تر: عمر أوكان، دط، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء/ المغرب، 1994، ص 15.

² - طروس محمد: النظرية الحجاجية من خلال الدّراسات البلاغية والمنطقية واللّسانية، ط1، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1426هـ - 2005م، ص 15.

³ - صولة عبد الله: الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ط 1، دار الفرابي، بيروت، 2001، ص 18.

الآخر، متوخية التأثير والانفعال. لكن كيف يعقد الحجاج علاقة مع آلية التّضليل، والتمويه، إذا كانت الغاية من الحجاج إحداث التّوافق والانسجام الفكري بين طرفي الخطاب؟

شغل هذا المبحث عناية القرطاجني، وخصّها بالدراسة في موضع حديثه عن صناعة الأقوال الخطابية، وتحقيق الإقناع بتطويع آليتي: التّمويه والاستدراج. يقول القرطاجني: <حوالتمويهات تكون في ما يرجع إلى الأقوال. والاستدراجات تكون بنهيئ المتكلم بهيئة من يقبل قوله، أو باستمالته المخاطب واستلطافه له بتزكيته وتقريظه، أو باطبائه إياه لنفسه وإحراجه على خصمه حتى يصير بذلك كلامه مقبولا عند الحكم، وكلام خصمه غير مقبول¹> وهنا يشير القرطاجني إلى الحجاج التّضليلي، أو التّمويهي، الذي يلجأ إليه المتكلم، قصد إيهام السّامع بصدق القول، وحمله على التّأثر به، ويعزى نجاح الحجاج التّمويهي إلى حذق المتكلم وقدرته اللغوية على تغليب الآخرين، واستمالتهم <> وهنا، يتفاوت النّاس في مقاصدهم التداولية تبعاً للأداء التواصلي LA PERFORMANCE COMMUNICATIONNELLE فهناك من يبني مقاصده على إحداث تفاعل إيجابي ملؤه النّقاها والاحترام مع الآخر؛ وهناك من ينزاح عن هذه الأخلاقيات في التّواصل، فيكون مقصده تضليل النّاس وتلبيس أقواله بكلام مضلل، وكلاهما يحتاج إلى كفاءة لغوية، وأداء خطابي، ومهارات حجاجية² <>

وقد كان للقرطاجني الفضل في الإشارة إلى الحجاج التّضليلي، لمعرفته المبكرة بالطّاقات التعبيرية التي تحملها اللّغة، وأنّ الأمر كلّ يرجع إلى كفاية المتكلم، وحذقه اللغوي.

كما أنّ الحجاج التّمويهي الذي أسّس له القرطاجني يقوم على آليات لغوية، وغير لغوية فالحجاج الذي ينشد من خلاله المتكلم غاية الإقناع، يجب أن يكون فعلاً منظّماً، يقوم على آليات وإجراءات تحمل على الإقناع، وتحقق كفاءة التّأثير، وهو ما أقرّه نصّ القرطاجني الذي خصّ فعالية الإقناع بآليات لغوية، وأخرى مادية، فالتمويهات المصاحبة للأقوال، إذا اقترنت بآليات الاستدراج – المتمثلة في مجموع وسائل الإقناع المصاحبة لعملية التّلفظ؛ من هيئة المخاطب، والإشارات المصاحبة لعملية التّلفظ – تؤدي إلى تحقيق إقناع مضلل <> إن التكوينات العديدة في مجال التّواصل ليست سوى تعلّم الطّرائق التي تهدف إلى حصر الآخر في فخّ فكري لا يمكن أن يتخلّص منه إلا بتبني الفعل أو الرّأي الذي نقترحه عليه³ <>

¹ - القرطاجني أبو الحسن حازم: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 64.

² - مغربي زين العابدين، حساين دواجي غالي: التّواصل والآليات التّضليل عند فيليب بروتون، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف/ الجزائر، مج12، ع 2، 2020، ص 223.

³ - فيليب بروتون: الحجاج في التّواصل، تر: محمد مشبال، عبد الواحد التهامي العلمي، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة 2013، ص 25.

فالعبارة ليست بمطابقة الكلام للواقع، بل باستغلال الإمكانيات التعبيرية للغة لخدمة الأغراض المختلفة للتواصل. وتطويع اللغة لخدمة مختلف أنواع التلقظ. إن عناية القرطاجني بالتمويه اللساني دليل على إدراكه المبكر بأنواع التلقظ من جهة، وإدراكه المبكر بأن الكفاية التواصلية تتحكم فيها- في أحيان كثيرة- إكراهات عديدة تحمل على تمويه المخاطب وتغليطه، بل وإخضاعه. وفي هذه الحالات يبنى التواصل على أحادية المنفعة وأحادية البعد، وتتدفى فيه الغايات النبيلة...

والمتمثل في الدراسات اللغوية المعاصرة، يلحظ عناية هذا الفرع من المعرفة بهذا الجانب من الاستعمال اللغوي، وهو جانب الإقناع المصاحب لجميع أنواع الخطابات التواصلية دون استثناء. فالبلاغة الجديدة تجاوزت التصنيف الأرسطي، لتشمل جميع الخطابات دون استثناء. >> تعني البلاغة إذن التحكم في إمكانيات اللغة لأجل التواصل مع الآخرين وإقناعهم بوجهة نظرك أو رأيك أو موقفك أو سلوكك أو أطروحتك¹<<

ومن جملة الإمكانيات التي توفرها اللغة لمستعملها؛ التمويه، والتضليل لإقناع الآخر وحمله على الاعتقاد بما نعتقده، ومن الرهانات التي يجب أن يخوض غمارها الكائن اللغوي؛ الحجاج، والإقناع. ف>> أن تعرف أن تحتاج ليس من قبيل الترف الزائد بل هو ضرورة. أفلا يعدّ افتقاد هذه المهارة، بالإضافة إلى ذلك، أحد منابع المتواترة الكبرى للامساواة الثقافية التي تضاف إلى اللامساواة الاجتماعية والاقتصادية التقليدية وتعززها؟ أفلا يعدّ إذن العجز عن التحكم في الكلام لأجل الإقناع، أحد الأسباب الكبرى للإقصاء؟²<<

إن مدار الأمر اليوم، استغلال الإمكانيات اللغوية وغير اللغوية لإقناع الآخر، وحمله على تبني المواقف التي نريد أن تشيع على نطاق واسع، وفعل التواصل لا يخلو من أساليب التمويه والتضليل التي يلجأ إليها المتلقظ اللغوي، يتساوى في ذلك المثقف والجاهل، الغني والفقير، المرأة والرجل... وتعمد تضليل الآخرين كان ولا يزال أسلوب حياة الكثيرين ماضيا وحاضرا، خاصة وأنّ الصدق يخلو من معيار يضبطه، ويحدّد معالمه بصفة مطلقة ونهائية. وهذا راجع إلى كون الحقيقة متعددة ومختلفة من شخص لآخر، لهذا يصعب وضع معايير ثابتة تتحدّد بها القضايا الصحيحة من الخاطئة >> لقد حاول فلاسفة العصر اليوناني القديم أن يعرفوا معيار الحقيقة هذا، غير أنهم عجزوا عن الوصول إليه؛ بل لقد اضطروا إلى التسليم أخيرا بأنّ الفكرة ذاتها ممتنعة، إذ لو وجد مثل هذا المعيار، لما استطعنا أن نتصور إمكان

¹ - المرجع نفسه، ص 9.

² - المرجع نفسه، ص 17.

وقوع النَّاس في الخطأ، وإمكان اختلاف الآراء حول الموضوع الواحد، في حين أنه لو كان ثمة حقيقة لكان من الجليّ أنّ رأياً واحداً منها هو الصَّواب¹ <

وقد يكون هذا عاملاً مهماً في شيوع نماذج لممارسات تواصلية تحتكم إلى أحادية البعد مبررة ذلك بأنّ الحقيقة حقائق، وما يبين صواباً عند البعض، هو خطأ عند البعض الآخر. وأنّ حرية التعبير تكفلها القوانين والدساتير، وأنّ مدار الحياة يكمن في القدرة على الإقناع.

الخاتمة:

يعزى للتراث العربيّ فضل السبق في الإشارة إلى كثير من المسائل اللسانية، واللغوية على غرار ما نلاحظه في كتاب منهاج البلغاء وسراج الأدباء للقرطاجني.

فالكتاب يحمل ملامح فكر لسانی جدير بالبحث والمعاينة. وتأتي عناية القرطاجني بآليات المناورة، والتمويه، والاستدراج الكامنة في التواصل الإنساني من وعيه المبكر بالطاقات التعبيرية للغة، وأنّ اللغة أداة طيّعة، تستعمل للتواصل الإيجابي، كما يمكن صرفها لأغراض شخصية، ورغبات فردية، وفي هذه الحالة يلجأ المخاطب إلى أسلوب التّمويه والتّضليل والاستدراج، وكلّها أساليب غير مباشرة للسيطرة وإخضاع المخاطب.

يطرح الفكر اللسانيّ المعاصر مصطلحات تأخذ شرعية تأسيسها من مختلف الخطابات التواصلية المشاعة في المجتمع، يأتي في مقدّمة هذه المصطلحات؛ التطويع الذي أسّس له فيليب بروطون PHILIPPE BRETON ***، وكذا مصطلح لسانیات الكذب الذي أسّس له الباحث الألماني هيرالد فاينرش HARALD WRINRICH ****

ومما لا شكّ فيه أنّ التراث العربيّ تعرّض لقضية الصدق والكذب، خاصة في الأقاويل الشعرية، وهذه مسألة طرحت كثيراً في مباحث الشعرية العربية، لكن ما يطالب به الباحث العربيّ اليوم، أن يوجّه التراث العربيّ وجهة لسانیة، ليكشف إمكانات هذا التراث، وطاقاته التعبيرية في الجانب اللسانيّ. فهل يمكن أن يحمل التراث ملامح فكر لسانیّ معاصر؟ هل يمكن أن نستخرج ملامح نظرية لسانیات الكذب في تراثنا العربيّ؟ إذا أمكن ذلك مبدئياً هل يمكن أن نحدّد المستوى اللساني الذي يتمظهر فيه الكذب؟ أيكمن في الكلمة، أم في الجملة أم في النصّ؟ كلّ هذه التساؤلات قد تقضي بالبحث إلى مغامرة

¹ - بول موي: المنطق وفلسفة العلوم، ص 26.

*** باحث في CNRC متخصص في علوم الإعلام والتواصل. من الذين يشتغلون على وصل الحجاج بالإعلام.

**** عالم لغويّ، عمل أستاذاً للغات الرومانسية بباريس، ألماني الأصل، ولد عام 1927، عمل في العديد من الجامعات الغربية الكبيرة، وحصل على عديد الجوائز والأوسمة داخل وخارج ألمانيا.

شقيقة تخرج التراث من الرؤية الأحادية، إلى الرؤية المتعددة شريطة ألا نحمل التراث ما لا يحتمل، وأن لا نغيب أسبقته الثقافية، والفكرية والفلسفية... وأن لا ندرسه بعيدا عن هذه السياقات.

إنّ تحيين التراث هو الرهان الذي ينتظر البحوث العربية القادمة، شريطة أن ينهض الباحث بهذه المهمة ملتزما الموضوعية. ولا يتحقق ذلك إلا إذا تخلّى الباحث عن نزعة تقديس وتّعظيم التراث بتحميله مالا يحتمل، ونزعة الموالاة المطلقة لتيّار الحداثة، والتقليل من شأن التراث.

التراث العربي لا ينضب معينه، لهذا يظلّ التراث قابلا للقراءة والتأويل، خاصة إذا علمنا أنّ التراث يظهر فيه جليا التأثير بالفكر اليوناني القديم من فلسفة، ومنطق، وبلاغة، ونظرية شعر... وإذا سلمنا جدلا أنّ نظريات الحداثة قامت كلّها على الفكر اليوناني القديم، فإنّ النتيجة المترتبة عن ذلك أنّ التراث يحمل ملامح تفكير حداثي بامتياز.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: الكتب

- أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين: مجمل اللغة، ج 1، تح: زهير بن المحسن سلطان، ط2، مؤسسة الرسالة بيروت، 1406هـ - 1986م.
- أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، مج 3، ط1، عالم الكتب، القاهرة، 1429هـ - 2008م.
- بول موي: المنطق وفلسفة العلوم، تر: فؤاد زكريا، د ط ، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2023.
- أبو الحسن حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب ابن الخوجة، ط3 دار الغرب الإسلامي، بيروت/ لبنان، 1986.
- الديوب سمر: الثنائيات الضدية. دراسات في الشعر العربي القديم، (د ط)، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق 2009.
- رولان بارت: قراءة جديدة للبلاغة القديمة، تر: عمر أوكان، دط، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء/ المغرب 1994.
- صليبا جميل: المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية، ج1، (د ط)، دار الكتاب اللبناني، بيروت/ لبنان 1982م.
- صليبا جميل: المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية، ج2، (د ط)، دار الكتاب اللبناني، بيروت/ لبنان 1982م.
- صولة عبد الله: الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ط 1، دار الفرابي بيروت، 2001.
- طروس محمد: النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، ط1، دار الثقافة الدار البيضاء، 1426هـ - 2005م.
- طه عبد الرحمن: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء 2000م.
- العجمي فالح شبيب: اللغة والسحر، ط1، 1424هـ - 2003م.
- أبو الفتح عثمان بن جني: الخصائص، ج1، تح: محمد علي النجار، ط2، دار الكتب المصرية 1952م.

-محمد سالم محمد الأمين الطلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر، ط1 دار الكتاب الجديد المتحدة بيروت، 2008.

- المسدي عبد السلام: المصطلح النقدي، د ط، مؤسسات عبد الكريم للنشر ، تونس ، 1994.
- المسدي عبد السلام : قاموس اللسانيات عربي - فرنسي ، فرنسي - عربي مقدمة في علم المصطلح د ط، الدار العربية للكتاب تونس ، 1984.

ثانيا: المقالات:

- أمقران شعبان، رواينية حفيظة: تقنيات الحجاج في البلاغة اليونانية القديمة. مقارنة لمشروع: السفسطائيين وأفلاطون وأرسطو مجلة اللسانيات مركز البحث العلمي والتقني لتطوير اللغة العربية، الجزائر، مج 25 ع 2، 2019.

- الجمعان سناء عبد الزهرة، الجمعان صفاء عبد الزهرة: الكفايات التواصلية لدى تدريسي كلية التربية من وجهة نظرهم وعلاقتها ببعض المتغيرات، مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية مج 44، ع 4 ب 2019.

- سعد صبار عبد الباقي محمد: التّمويه اللّغوي في التّواصل الإنساني. دراسة لسانيّة، مجلة مداد الآداب ع 20، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الفلوجة، (د ت).

- فيليب بروتون: الحجاج في التّواصل، تر: محمد مشبال، عبد الواحد التهامي العلمي، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة 2013.

ثالثا: المواقع الإلكترونية:

- رولان بارت: السّلطة واللّغة، تر: عبد السلام بنعبد العالي، تاريخ النّشر 2016/11/28، العنوان الإلكتروني: hekmah.org، تاريخ التصفح: 2023/08/09.

- قريرة توفيق: الصدق الذي يستملح الكذب، مجلة القدس العربي، تاريخ النّشر: 2023/06/06 العنوان الإلكتروني: <https://www.alquds.co.uk>، تاريخ التصفح: 2023/07/14.

- مغربي زين العابدين، حساين دواجي غالي: التّواصل وآليّات التّضليل عند فيليب بروتون، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف/ الجزائر، مج12، ع 2 2020